الفصل العاشر

لطف الله بالكائنات

إن لطف ربنا جلا وعلا شمل كل الخلق حتى رأينا في حياة المخلوقات ما يعجز عن بيانه اللسان والبيان وها هي إشارات سريعة توحي بهذا المعنى.

١- النحل الأفريقي:

هناك نوع من النحل الأفريقي لا يتغذى صغاره إلا بغذاء حي فإذا لم تضع الحية صغارها في وسط حي ماتت هذه الصغار، ولذلك ألهم الله هذه النحلة طريقة لحل هذه المشكلة بالنسبة لصغارها، حيث تذهب وتهجم على جرادة فتلسعها لسعة بين جناحيها ولكنها في هذه اللسعة لا تفرز المقدار الاعتيادي من السم كما في اللسعات الأخرى العادية وذلك مخافة أن تؤدي تلك اللسعة إلى موت الجرادة ولذا فإنها تعطي في هذه اللسعة سُمًا يكفي لإحداث غيبوبة في الجرادة لمدة خمسة عشر يومًا، وبعد ذلك تضع النحلة بيضها تحت جناحي الجرادة ثم تطير، فهي تعلم أن صغارها ستتغذى طيلة خمسة عشر يومًا على هذا الغذاء الحي، وفي اليوم الخامس عشر عندما يكون الصغار على أهبة الطيران فإما أن تموت الجرادة أو أن تفيق وهي جريحة[1].

٢- المهارة الجوية للنحل الأفريقي:

يقول أحد العلماء المتخصصين في تربية النحل أخذ خبير من الخبراء نحلة ووضعها في علبة ثم وضع العلبة في جيبه انتقل بها إلى مسافة ميل ثم أطلق سراحها فدارت فوقه في الهواء عدة مرات ثم اتجهت نحو خليتها مباشرة بدون أن تضل الطريق

---

(١) «الإنسان ومعجزة الحياة» لخلوق نور باقي (ص: ٤٠) نقلًا عن «المنهاج الأسني» (٢/ ٥٥٣).

إليها فسبحان من ألهمها ذلك!. ويقول أن سربًا من النحل نقل عن طريق رحلة بالباخرة استغرقت ثلاثة أيام إلى بيئة جديدة؛ وما هي إلا لحظات بعد أن أطلق سراح النحل حتى عاد النحل سريعًا إلى خلاياه أي القديمة التي أخرج منها ونقل عنها[١].

٣- كيف يعرف النمل طريقه؟

كيف يعرف النمل الموجود في جحره الطريق إلى الطعام الذي يكتشفه الباحث عنه؟ توصل بعض الباحثين إلى معرفة سر ذلك إذ تبينوا أن أفرادًا من فصائل النمل التي تستكشف الطعام تفرز من غددها الشرجية مادة نفاذة الرائحة في صورة خيوط تمتد مباشرة من المكان الذي يوجد فيه الطعام إلى مساكنها وأن الجموع من النمل تتبع تلك الآثار ومن التجارب الطريفة في هذا المجال ما قام به أحد الباحثين حيث قام بوضع طست غسيل على أرض المطبخ وصب فيه ماء حتى بلغ نصفه، ووضع في الماء مصباحًا قديمًا ووضع عليه فطيرة حلوى مخوطة بالعسل، وانتظر ليرى كيف يصل النمل إلى الطعام، وفوجئ بعد أسبوع أن الطعام امتلأ بالنمل، فقد استطاع النمل أن يبني جسرًا على الماء لكي يعبر فوقه وهذا الجسر بني من القش فقد استطاع النمل أن يجمع قشًا ويلصق بعضه ببعض بواسطة مادة خاصة يفرزها، وأقام بذلك جسرًا عظيمًا يمتد من حافة الماء إلى المصباح بل إن هناك أعدادًا من النمل اتجهت اتجاهًا آخر، فكانت تصعد من خلال الجدران إلى السقف وتمشي مقلوبة على السقف حتى تكون فوق الطبق مباشرة وعندئذ تلقي بنفسها على الطعام واحدة بعد الأخرى بدقة لا مثيل لها،

---

(١) «مشكلات تحير العالم» لأثر تومسون نقلًا عن «المنهاج الأسني» (٢/ ٧٣٧).

إنها عملية إسقاط جوي يعجز عنه كثير من البشر[١] وهذا من بديع لطف الله بهذا المخلوق الضعيف أن يلهمه السبل التي يتوصل من خلالها إلى رزقه الذي قدره الله له.

٤- لماذا خلق الله للحيوان ذيلاً؟

هناك حكم كثيرة في خلق هذا الشيء الذي لا يكاد يلتفت إلى منفعته للحيوان بشر يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد إليها وفيه منافع كثيرة:

فمنها: أنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريها ويسترها، ومنها أن بين الدبر وأسفل بطن الدابة له وضر (وسخ) يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذي الدابة فجعل الذنب كالمذاب وكالمراوح تطرد منه ذلك عنها.

ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يُمنة ويُسرة فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة.

وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها إفهام الخلق أو يزدريها السامع إذا عرضت عليه فإنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض في الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها[٢].

---

(1) سبعون برهانًا علميًا على وجود الذات الإلهية نقلًا عن «المنهاج الأسني» (٢/ ٧٣٨).

(2) «مفتاح دار السعادة» (٣/ ٣٧٠).

٥- لطف الله وحكمته في خلق الفيل:

يقول الإمام بن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: تأمل مشفر[١] الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه، ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئًا من الأشياء من الأرض لأنه ليس له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه الخرطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادرا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف فيه كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس منه ما يريد ويكيد به إذا شاء ويعطي ويتناول إذا أراد.

فسل المعطل من الذي عوضه وأخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم له مقام وينوب منابه غير الرءوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم؟ وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه وبارئه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فإن قلت: فما باله لم يخلق له ذا عنق كسائر الأنعام؟ وما الحكمة في ذلك قيل: والله أعلم بحكمته في مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لا نهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ملصقًا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤونة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة في ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسبحان من فاقت حكمه عدد العادين وحصر الحاصرين.

---

(١) أي: خرطوم الفيل.

٦- لطف الله بالأسماك وحكمته في تدبير أمرها:

يقول ابن القيم: تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته،وأنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مكانه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك يحتاج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم (الأرجل) أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف (المجاديف) من جانبي السفينة، وكسى جلد السمك قشورًا متداخلة لتقيه من الآفات، وأُعِينَ السمك بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخة منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخية بذلك كما يأخذ الحيوان الهواء البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء فسبحان من لا يحصي العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل إن علموا منها وجهًا جهلوا منها أوجهًا، فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلًا ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الآجام، حائمة تعكف على الماء الصافي وإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفه فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله و الناس تأكله والسمك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة.

ولو رأى العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأي العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو.

٧- لطف الله بالطيور في خلقها:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائرًا في الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به القوائم الأربع على اثنين من الأصابع الخمس على أربع و من مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعًا ثم خلق ذا جؤجؤ[(١)] محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله.

ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعًا بلا مضغ نقص من خلق الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يحتسج[(٢)] من لقط الحب ولا يتعفف من نهش اللحم.

ولما عدم الأسنان كان يزدرد الحب صحيحًا واللحم طريًا، أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحًا وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر.

---

(١) هو: مجتمع رؤوس عظام الصدر وشكله كزاوية حادة هكذا ∧ هذا شكل عظم القفص الصدري للطائر وهو يشبه مقدمة السفينة.

(2) أي: لا يخدش.

ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضًا ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران.

وتأمل الحكمة في كون الطائر السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعًا او أسبوعين باختياره قاعدًا على بيضه حاضنا له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ثم يزقه فراخه وليس بذي رؤية ولا فركة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر، فهذا من فعله بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها إلا هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه.

ثم تأمل بيضة هذا الطائر وما فيها من المخ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يتغذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشوء الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به إلى خروجه[1].

٨- عجائب لطف الله بمخلوقاته:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب شفاء لعليل: ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبًا بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا تعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى قال بعض العرب.

ينام باحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٠-٣٧٧) بتصرف.

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجئ فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم؟ قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدي كأني أرميه فلا يطير وربما أهويت إلى الأرض أتناول شيئًا فلا يتحرك فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي! ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش وأن يقيما له حروفًا تشبه الحائط، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم يقلبا البيض في الأيام ومن قسم بينهما الحضانة والكد؟ فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب النوت على الأب وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخًا متداركًا حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام، وهو كاللبن للطفل ثم يعلمان احتياج الحوصلة فإذا اندبغت زقاة الحب، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه ومن علمهما إذا أراد السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء فتطارد له الأنثى قليلًا لتذيقه حلاوة المواصلة ثم تطيعه في نفسها، ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه ثم تتهادى وتتكاسل وتريه معطفه وتعرض محسنها ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان ومن علم المرسلة منها إذا سافرت ليلًا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها فتستدل بذلك وغيره إذا ضلت فإذا عرفت الطريق مرت كالريح ومن علم اللب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه فيرى الذبابة أنه لاه عنها ثم يثب عليها وثب الفهد.

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطًا ثم تتعلق به فإذا تعرضت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها؟ ومن علم الظبي أنه لا يدخل كناسة إلا مستدبرًا ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه، ومن علم النسور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها ثم يشير إليها بالرجوع وإنما يريد أن يدهشها فتنزلق فتسقط ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الجافر ومجرى الماء ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبوابًا عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزًا رقيقًا، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وفرح منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر بعد ذلك.

ومن علم الإيل (الوعل وفصيلة الغزال) إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس وللريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو[1].

يقول ابن الجوزي: ولو أن إنسانا تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه وتصوير الفرخ في بطن البيضة والآدمي في أحشاء الأم إلى غير ذلك من المخلوقات،

(١) «شفاء العليل» (١٧١-١٧٢).

أزعجه هذا التفكر إلى تعظيم الخالق فقال سبحان الله وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر فهذا تسبيح المتيقظين[١].

(١) «صيد الخاطر» (٤١٤).

obeikandl.com